

الفصل الثاني

من البدع المذمومة إلى البدع المكفرة

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،
الذين آمنوا وكانوا يتقون)

قرآن كريم

تعلم المسلمون أن يتجنبوا محدثات الأمور . وأن يؤدوا الأمانة في دينهم . وكل أمانة لا تؤخذ مأخذ جد مآلها إلى عدم الأداء ، والشرك أخفى من ديب الحمل في الغافلين ، إن لم تنبذ له النفس دب إليها من حيث لا تستين .

لم تكذب تنفضي الأجيال الثلاثة المفضلة حتى نجت البدع في المجتمع ، ومنها ما تصدى له خلفاء بني أمية في أخريات أيامهم وبني العباس في مطالع دولتهم .

ولم يسلم التيار الفكري للأمة من بدع وافدة من الخارج تهاون في صدها جمهور أهل العلم . فكفوا للفكر الباطني أن تنمو بذوره وأن تمد جذورها من فرقة إلى أخرى : مثل التأويل الباطني أو الرمزي ، وادعاء العلم اللدني . والخوف من غير الله سبحانه وتعالى ، وتقديس رجال زعموا رفع التكليف عنهم ، وإتيانهم بالخوارق . أو أنهم يعلمون الغيب ولا يمسهم سوء .

وكان كل جيل جديد يشهد جديداً من البدع أو تمكيناً لغيرها حتى حل زمان لم يكن ييسر للنّاظر أن يبصر فيه بأساس دين المسلمين وهو التوحيد الخالص !

وإنما بلغ المسلمون هذا المبلغ درجته ، بعد إذ نسي الناس الله فأنساهم أنفسهم . فأسموها إلى جنس غالب عليهم بعد جنس آخر ، وسرت كاللواء آراء مفكرين جلهم من غير العرب ، لأن المسلمين لم يقابلوها بالفكر الأصيل الشافي من المرض ، وهو القرآن والسنة . وعلى هذا التراخي أرخى الليل سدوله ، وتباطأ تيار الشرع الدقيق في جريانه .

والفكر الأصيل لا يتوقف دفعة واحدة ، وإنما يصاب صاحبه بالاختناق ؛ إذ تعجز القنوت الاجتماعية والإنسانية عن تحمله لعوامل قريبة أو بعيدة . منها ضعف الدين أو نقص العلم وفقدان الأنفس ثقته بما هي فيه عن يقين أو توهم . فتستحب الدخيل عليها أو تستنم له أو تعجز عن

مغالبة ، ويوهى جلدها تعاقبُ الزمان وانقطاع الأمل والعجز عن الجهاد والاجتهاد والرضا بالتقليد والتواكل . فترك الشر وشأنه .

ولم يك بعيداً عن ذلك أمم الجماعة الإسلامية منذ المائة الثالثة للهجرة ، إذ أُنيج للفكر الشعوى أن يزدهر بأقول نجم العرب ، ثم بحرمانهم من الجهاد ، منذ قصر المعتصم الجندية على الأتراك . وتلاحق الغزاة على المجتمع ، وفي جعبتهم آراء شتى ومتشعبة وبقايا مترسبة من عقائد بالية لم تتطهر بعد بالإيمان الصحيح . أو حرص عليها أصحابها كشعار عنصرى لمقاومة العرب . ومن ذلك تأليه الملوك وعبادة النار والاعتقاد بوجود إلهين للخير والشر والنور والظلام والامتناع عن الزواج وشيوعية الأموال والأزواج ورجوع الموتى للحياة في الدنيا !

فمن قبل الإسلام سادت المزدكية في فارس وخراسان وفيها جاع مبادئ الديانات الفارسية : من أتباع ماني الذين يرون للعالم أصليين هما الظلام والنور ، وأن الحياة على الأرض جنابة ، وأن لاداعي للزواج - إلى أتباع زرادشت (٥٨٣ ق . م) الذين يؤمنون بوجود إلهين إله الخير وآخر للشر ، وأضاف مزدك إلى العقيدتين السابقتين مبدأ شيوعية الأموال والأزواج . وعندما قتل ماني (٢٧٦) ومزدك (٥٢٩) شاع بين أتباعها أنها لم يقتلا ، وإنما رفعا إلى السماء ، وأن كلاً منهما سيعود ليملأ الدنيا عدلاً !

ولما دخل المسلمون فارس وخراسان وبلاد ما وراء النهر وتركستان (روسيا السوفيتية الآن) في القرن الأول للهجرة وجدوا الناس يعبدون النار ، ويعتقدون تعدد الآلهة والاتصال بالعالم الخفى وهبوط المعارف من العالم الإلهي إلى بعض الناس .

ولم يكده يستهل القرن الثاني للهجرة حتى تداول المسلمون ترجحات شتى ، منها ترجمة ابن المقفع لكتاب مزدك المسمى (دستانو) . وترجمته لكتاب كليله ودمنة من اللغة الهندية فيها أفكار مزدكية . واشتهرت زندقته حتى كان الخليفة المهدي يقول : (ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع) .

وكما نبه البيروني فيما بعد على ما في كليله ودمنة من زندقية ، نبه على أن عبد الكريم بن أبي العرجاء - وهو عرني ملحد قتلته المهدي فيمن قتلهم من الزنادقة - كان من المانوية . ومن قبل المهدي ظهرت هذه العقائد في أتباع أبي مسلم الخراساني - قائد الجيش الخراساني الذي جاء بني العباس إلى الخلافة - فأله أنصاره قبل أن يقتله عبيد أبي جعفر المنصور في حضرته ، ثم في أتباع ابنته وابنها فيروز ، وفي أتباع سبناذ ، إذ قام يطالب بدمه . وفي الراوندية الذين هجموا على أبي جعفر ليقتلوه فنجا منهم بشجاعته .

أما يحيى بن خالد أبو البرامكة وأستاذ الرشيد ومربيه ووزيره الذى فوض إليه وإلى خيه شئون الدولة - فكان جدوده سدة بيت التارقي بلخ .

وفى يحيى وبنيه يقول الأصمعى :

إذا ذكر الشرك فى مجلس أضاءت وجوه بنى برمك

وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

وكان جوستينيان إمبراطور الرومان قد أغلق « الأكاديمية » فى أثينا ، فلجأ علماءها إلى كسرى سنة ٥٢٩ للميلاد ، فمكن لهم فى « مدرسة جنديسابور » . وأحدثت هذه المدرسة من نحو قرن قبل قيام التقويم الهجرى تخليطاً إغريقياً فارسياً فى التفكير آل إلى المسلمين بين ما آل إليهم من العلاقات والترجمات . وقد أخذت سبيلها إلى العرب من عهد بنى أمية ، ولهذا لم تبعد من المسلمين آثار مدرسة الإسكندرية وفيها الفكر الإغريقى الوثنى بمثالبه واتجاهاته .

ولمدرسة الإسكندرية شأن من عهد إقليدس وأرسيميدس وأفلاطون وفيثاغورث ، وفيه أصداء الفلسفة الكنية التى تأثرت بها فلسفة أفلاطون فسميت الأفلاطونية المحدثة .

وكان للراهب القبطى المصرى الإخميمى أفلوطين أثر ظاهر فى هذه الفلسفة ذاع به التشبيه والتجسيد والغنوص .

ومن مصر القبطية عرف العالم نظامى الرهينة التوحدية والديوانية ، وانتقل مثلها إلى فلاسفة المتصوفين المسلمين . فآثروا بها بين ما تأثروا به من فكر باطنى وتأويل رمزى وآراء غيبية وزعاعات فارسية وهندية وإغريقية وإسكندرية .

وسرى بعد ذلك كثيراً من الأفكار الوافدة من الخارج وآثارها لدى غلاة الشيعة وغلاة المنتصوفة فما أطلق عليه المتأخرون وصف (التصوف الفلسفى) ، وفى كثير منه ما أجمع العلماء على تبديعه ، لأنه يخالف الأصول .

التصوف السلفى

أما التصوف السلفى الذى يجمع عليه المسلمون فهو زهد الصحابة والتابعين أى « السلف الصالح » . والمتصوفة عموماً يعتبرون أحمد بن حنبل من أتادهم : يقول أبو بكر البطائنى : (أتاد العراق ثمانية : معروف الكرخى وأحمد بن حنبل وبشر الحافى وسرى السقطى . . .) . وأحمد أزهد الناس فى مدخله ومخرجه ومسكنه ومأكله وملبسه .

يقول : (ما أعدل بالفقر شيئا) ويقول : (إني أفرح إذا لم يكن عندى شيء) ويقول : (ما قل من الدنيا كان أقل للحساب) .

ولما أحاط به الرفاه في قصر المتوكل تقبض عنه واستخرج الكيسر من زاده ، وجاع حتى خيف عليه التلف .

يشترى بدرهم شحما . فيأكل منه شهرا ، فإذا استيسر له الأمر فرما اشترى بطيخة أو عبا أو تمرا . أو ربما أخذ الكيسر فصيرها في قصعة وأضاف إليها الملح وأكل . وأبو حنيفة ومالك لباسان . وفي الطعام يتقشف أبو حنيفة . والشافعي يأكل ويلبس ما تيسر .

وهدى الرسول ﷺ أكل ما تيسر ولبس ما تيسر . لا يرد موجودا ولا يتكلف مفقودا وما قرب إليه شيء من الطعام إلا أكله إلا أن تعافه نفسه من غير تحريم . ولم يكن يرد طيبا ولا يتكلفه . يرى الهلال وراء الهلال وما توقد في بيته نار !

والفقر زهد في المال والمظهر والطعام واللباس وخلو القلب من كل ذلك . والغنى سافل وعانى : السافل غنى عن الأعراض والعواري المستردة . والعانى غنى القلب .

يقول عليه الصلاة والسلام : (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس) . وقالت حفصة أم المؤمنين لعمر إذ فتحت الفتوح : البس الثياب ، وإذا وفدت عليك الوفود فربصنع طعام تطعمه وتطعم من حضر . فقال لها : هل تعلمين أن رسول الله لم يشبع ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية . ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ؟ هل تعلمين أن رسول الله قربتم إليه طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ، ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض ؟ . إن رسول الله كان ينام على عباءة مثنية ، فنثيت ليلة أربع طاقات نام عليها ، فلما استيقظ قال : منعموني قيام الليل بهذه العبادة اثنوها اثني كما كنتم تثونها) .

وهو القائل ﷺ : (طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع) . وفي زهد الصحابة يقول عبادة بن الصامت للمقوقس : (وما يبالي أحدنا أكان له قناطير مقنطرة من الذهب والفضة أم كان لا يملك إلا درهما ، لأن غاية أحدنا أكله من الدنيا يسد بها جوعه ليته ونهاره) .

وكان منهم الأغنياء من تجاراتهم كعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة رضي الله عنهم . والمهجرة والجهاد والتضحية بالنفس والمال أعظم درجة : روى النعمان بن بشير قال : كنت عند النبي ﷺ فقال رجل : ما أبالي ألا أعمل بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ! وقال آخر ما أبالي

بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ! وقال على بن أبي طالب : الجهاد في سبيل الله أفضل ، فقال عمر : لا ترفعوا أصواتكم عند منير رسول الله ، ولكن إذا قضيت الصلاة سألته : فسأله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفاتحون . يشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجات لهم فيها نعيم مقيم خالد فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم) . ولما غاب عمير بن سعد في ولايته أرسل عمر يستدعيه ، فأقبل وعلى كتفه اليسرى قرية ماء وعلى اليمنى قصعة ، وفي يده عصاه ، فدخل المدينة أشعث أغبر من وعثاء السفر حتى بلغ مجلس عمر ، قال : ما شأنك يا عمير ؟

قال : شأني ما ترى ؟ ألت تراني صحيح البدن طاهر الدم . معي الدنيا التي أجزأها بقريةها . قال عمر : أجنث ماشيا ، أولم نجد من يعطيك دابة تركبها ؟ قال : إنهم لم يفعلوا ولم أسألهم . قال عمر : فإذا عملت فيما عهدنا إليك به ؟ قال : أتيت البلد الذي بعثني إليه ، فجمعت صلحاء أهله ، ووليتهم جباية فيهم وأموالهم حتى إذا جمعوها وضعتها في مواضعها . . قال عمر : فما جئتنا بشيء ؟ قال لا ، ولو بقي لجئتكم به . قال عمر : جددوا لعمير عهدا !

قال عمير : (تلك أيام قد خلت ، لا عملت لك ولا لأحد بعدك) . ولم يكن عمر يطبق رجلا قعدة . بل كان يسقط من عينه الرجل إذا لم تكن له حرفة . سأل أهل الصفة : مم تعيشون ؟ قالوا : نقيم الصلاة ونتلقى الصدقات ، قال : ليس في الإسلام سؤة ، وأخذ منهم أموالهم وغنمهم وآتاهم جريدا وعلمهم كيف يصنعون الخصر . وفي العام التالي قالوا له : إنا نركي الآن ونصدق ، فلقد صاروا أغنياء بالعمل . ويسأل عليه الصلاة والسلام عن اللباس الحسن : أيكون من الكبر ؟ فيجيب (لا) . إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس) .

ويقول مالك بن دينار : (أدركنا الصحابة وهم لا يعيب بعضهم على بعض الملابس من أعلى وأدنى ، لا يعيب صاحب الخبز على صاحب الصوف . ولا صاحب الصوف على صاحب الخبز) . ويضع عبد الله بن عمرو (٦٦) الضوابط بين المسلم العادي الذي أغناه الله عن التماس وبين من عده يوم سأل سائل : وقال له عبد الله : ألك امرأة تأوى إليها ؟ قال : نعم ، قال : ألك

ممكن تسكنه؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء ، قال الرجل : فإن لى خادماً ، قال : أنت من الملوك !

وكان أحمد بن حنبل يلبس الغليظ لكن ثوبه ليس غليظاً ينكر أوريقاً ينكر وإن كان رخيص الثمن يؤخذ بالدينار ونحوه . ملحفته تساوى خمسة عشر درهماً ، ولم يكن لباسه بذلك . وقد يرقع قميصه برقعة يقطعها من إزاره .

وسيصبح لباسه أجود قليلاً بعد إذ يبلغ السبعين ويستغنى عنه ابنه ، فيؤمئذ تخلص له أجرة حوانيته التي كان يؤجرها في الشهر ببضعة عشر درهماً .

وهذا الإيراد الذي يكفيه يحدد لنا حدود الزهد عنده ، إذ يسأله سائل عن مائة دينار : أياكون زاهداً ؟ ويجب الإمام : « نعم على شريطة أنها إذا زادت لم يفرح وإذا نقصت لم يجزع . » ومائة دينار تربو على مائة ضعف لما يكنى أحمد شهراً .

وابن مسعود صاحب الرسول عليه الصلاة والسلام يقول عن الغنى والفقر : (هما مطيتان ما أبالى أيهما ركبت ! إن كان الغنى فقيه البذل ، وإن كان الفقر فقيه الصبر) .

وفي هذا الزهد السلبي يتشدد المتصوفة الأول ، فيقولون : إن أصولهم ثلاثة :
١ - ملازمة الكتاب والسنة .

٢ - ترك الأهواء والبدع .

٣ - ترك الرخص والتأويلات : أى الأخذ بالعزائم .

يقولون : كان النبي ينهى عن وصل الصيام ، ومع ذلك كان يواصل الصوم ويسرده حتى يقال لا يفطر . ويفطر حتى يقال لا يصوم ! ولذلك واصل بعض الصحابة الصوم مع نهى النبي عنه ، لأنهم فهموا أن النهى للرفق ولم يروا أن يرفقوا بأنفسهم ، لأن ترك النفس على هواها خطر ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : (حفت النار بالشهوات) .

ومن الثابت أن الصحابة تورعوا عن كثير من المباحات : كأم المؤمنين عائشة . فكثيراً ما تصدقت بالمال العظيم ، وأفطرت على أقل شيء ! .

• • •

ومع أن النهى عن التشديد صريح في الشريعة في كل مجال حتى صار أمراً قطعياً ، فإن بعضاً كانوا يستحبون المشقة وهم العليمون أن الله يحب أن تتعاطى رخصه . ومع أن إيذاء النفس منهى عنه فالبعض يقارنون بين عمار حين استعمل التقية ، والكفار يعذبونه بالنار لينجو بحشاشته ، وبين خبيب بن عدى إذ رفض استعمال التقية فقتل .

وكان إبراهيم التيمي (الذي مات في سجن الحجاج سنة ٩٢) يقول : إذا أخذت برحص كل عالم اجتمع فيك الشر كله .

وأحمد يروى عن محمد بن يحيى القطان : لو أن رجلا عمل بكل رخصة : يقول أهل الكوفة في النبيذ وأهل المدينة في السماع (يعنى الغناء) وأهل مكة في المتعة - أو كما قال - لكان فاسقا .
ولما سئل أحمد عن الأسير يخبرين القتل وبين شرب الخمر أجاب : إن صبر فله الشرف وإن لم يصبر فله الرخصة .

فأحمد يرى الصبر شرفا والرخصة حقا .

وأقوال الصوفية متواترة على أنهم لا يخرجون على السنة : فالجنيد (٢٩٧) يقول : (علمنا هذا مشيد على الكتاب والسنة) . ويقول : (الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتنى آثار النبي ﷺ فإن الله عز وجل يقول في حديث قدسى : وعزنى وجلالى لو أتوتى من كل طريق واستفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك) .

ويقول : (أخذت عن أبي الحسن السرى بن المغلس السقطى (٢٥٣)^(١) ، وأخذ السرى عن معروف الكرخى (٢٠٠) . وأخذ معروف عن فرقد السنجى ، وأخذ فرقد عن الحسن البصرى^(٢) (١١٠) . ولقى الحسن سبعين من البدرين) .

ومن مشيخة الصوفية الشبلى أبو بكر بن جحدر (٣٢٧) ، وكان فقيها على مذهب مالك ، يسأل عن الزكاة في خمسين من الإبل فيجيب : في الشرع شاة . وفيما يلزم أمثالنا كلها . قال السائل : هل لك في هذا إمام ؟ فأجاب : أبو بكر الصديق ، حيث أخرج ماله كله فقال لنبي ﷺ : ما خلفت لعيالك ؟ قال : الله ورسوله ! وفي رواية أخرى أنه أجاب « أما الواجب فشاة . وأما عندنا فكلها لله . قيل وما دليلك ؟ فأجاب : أبو بكر حيث خرج عن ماله كله لله . فن خرج عن ماله كله فدليله أبو بكر . ومن خرج عن بعضه وترك بعضه فدليله عمر ، ومن أعطى لله ومنع لله فدليله عثمان ، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي »

• • •

(١) خال الجنيد ومعلمه وكان زميلاً لأحمد بن حنبل في عهد الطلب ، وكان من أوائل المتكلمين في التوحيد على طريقة الصوفية . وهو التاجر الصدوق والزاهد الأمل . وكان يعمل وينفق أمواله على الزهاد .

(٢) يقول فيه أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (٤٣٠) في حلية الأولياء : (حليف الخوف واخزن الله وإنشجن عديم التوم والوسن أبو سعيد الحسن بن الحسن ، الفقيه الزاهد المتشمر العابد) .
قال له رجل من عظم مهاجرة أنت متكبر ، قال : (لست بمتكبر ولكنى عزيز) وهو قاضى عمر بن عبد العزيز .

الصوف :

والصوفية لا ينتسبون لأهل الصفة أو إلى الصفاء كما يدعى بعضهم^(١) بل هم منسوبون إما إلى لبس الصوف وإما إلى كلمة (صوفى) Sophia الإغريقية .

أما النسب الأول فعربى مرده إلى أن بعض الخنفاء في الجاهلية كأمية بن الصلت قد ارتدوا إلى الصوف ، أو كزيد بن عمرو وقد ارتدى ملابس من شعر .

وفي الإسلام لبس الصوف سلمان الفارسي وأبو ذر وأبو عبيدة . وقال أبو موسى الأشعري : يا بى ، لو رأيتنا ونحن مع نبينا ﷺ إذا أصابتنا السماء وجدت منا ريح الضأن من لبسنا الصوف . ثم مضى قرن ظهر لبس الصوف فيه على بعض الزاهدين ، ومنهم من تظاهر بالتقشف ، إذ لبسه ، فأصبح سفيان الثوري (١٦١) يرى لباس الصوف علامة رياء . فيقول : (لولا أبو هاشم الكوفي (١٥٠) ما عرفت دقيق الرياء) وأبو هاشم أول من أطلق عليه وصف « الصوفى » وكان يلبس الصوف . ثم لبسه الكثيرون في القرون التالية ، كما لبسوا الخرقه علامة على التصوف . وفي محاربة التظاهر بالملبس يقول الجنيد منذ القرن الثالث : (إذا رأيت الصوفى يعنى بظاهره فاعلم أن باطنه خراب : ليس التصوف بالخرقة ولكن الاعتبار بالخرقة) .

وفي القرن الخامس كان الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله يلبس الصوف أحياناً ، ويقتك بالأمة ! وأما النسب الثانى فأغريقى صراح يتزعم القوي به منذ القرن الرابع أعظم عقلية في التاريخ - كما يقول المؤرخ الأوربى سخاو - البيرونى (٣٥١ - ٤٤٠) .

والبيرونى منذئذ يرى أن (صوفيا) اليونانية . ومعناها « الحكمة » أصل وصف (الصوفى) في المسلمين .

ومن المستشرقين كثيرون^(٢) يرون أن قرب خراسان من الهند ومن بلاد فارس ومن العرب يسر فهم الأصل المجوسى للتصوف . والبيرونى يرى التشابه قويا بين البوجا الهندية وبين كثير من تصرفات المتصوفة ويوازن بين أنظار اليونان ومذاهبهم وبين أذواق المتصوفة ومقولاتهم ورياضاتهم ، وينتهى إلى تشابه حكماء الهند واليونان وصوفية المسلمين ؛ إذ يشترك التصوف والديانة البرهمية في عقيدة وحدة الوجود التى تجلت في مقولات المتفلسفين من المتصوفة في أواخر القرن الرابع للهجرة .

(١) البيرونى منذ القرن الرابع يروى قول أبى الفتح السبى (٤٠٠) :

تأزع الناس في الصوفى واختلفوا قدماً وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أهل هذا الاسم غير فنى صاق فصول حتى لقب الصوفى

(٢) مهج هورتين وتوليك ويوشيه وماسنيون وبزاون وأوتيرى وجولدنبير .

والبعض يرى آثاراً من المسيحية وانتشار الرهبنة فيها والقول بالحب الإلهي قد انتقل إلى المتصوفة المسلمين من القساوسة . بل يروى المبرد في الكامل أن راهبين قدما من الشام لزيارة الحسن البصري (فإن صفاته كحياة المسيح) كما عبر واحد منها عن شعوره .

ومن قبل الإسلام غلا أقباط مصر في رهبانهم ، وازدادوا غلوا في الذين يموتون منهم . فاتخذوا قبورهم أوتانا تعبد أو مناسبات لشد الرحال في الأعياد والموالد . وكانت تحدث فيها انحرافات نهى عنها صلحاء المسيحية ، سترها تنحدر إلى أجيال لاحقة في مجتمع المسلمين . كما قدست أجيال لاحقة الأولياء كهيئة تقديس القدماء للقساوسة ، في حياتهم وبعد موتهم ، وأقامت التنكيا كهيئة الأديرة التي أقامها أقباط مصر القدماء ، ونقلها عنهم المسيحيون في أرجاء العالم (١) .

التصوف الفلسفي

الحق أن القرون الأولى من عمر الإسلام لم تعرف التصوف إلا على أنه الزهد والتقشف ، وإن بدأت تستمع إلى أقوال في الحب والأذواق والمواجد والأحوال والمقامات في المائة الثانية ثم الثالثة . والحق كذلك أن التصوف - كالشييع - وجد مثابة له في كثير من أنحاء فارس وخراسان وفيها تعاقبت دول الشيعة .

في القرن الثاني (المائة الثانية) توفي أربعة من أشيخ التصوف هم داود بن نصير الصائى والفصل بن عياض وإبراهيم بن أدهم (٢) وتلميذه شقيق البلخي (١٩٤) وأولهم عري والثلاثة الآخرون من بلخ ومرو أو سمرقند .

ثم وجد في القرن الثالث متصوفة عراقيون وشاميون ومصريون كأبي حمزة (٢٦٩) - تلميذ أحمد بن حنبل - والحارث المحاسبى وأبي سليمان الداراني وأحمد بن أبي الخوارى (٢٩٥)

(١) جاء في كتاب (تاريخ الحضارة المصرية) أن القديس باخميوس (٢٩٠ - ٣٤٨ م) وضع مجموعات قوانين للرهبان الذين يعيشون في دير واحد حياة فقر اختياري وتبذل وطاعة للمرشد ، وأن الأنبا شودة (٣٣٣ - ٣٥٠ م) أقام نزهة للميريين الأبيض والأحمر قريباً من أنخم وسوهاج وأخذهم بالنظم القاسية . ونادى بإصلاح حال الموالد حيث يقع القط أعياداً بتدبيرين تقام الصلوات فيها وتؤدى النذور ، وتشرق الذبائح ، وكانت تحتوي على فضائح في الحيام والأسواق لا تفرها الكيسة ، وق صدداً أن الأنبا شودة موعظه الشهيرة عند أقباط مصر وفيها يقول : (جميل جداً أن يذهب الإنسان إلى مقر الشهيد ليصل ويبتد الزامير ويظهر نفسه ، ويتناول الأسرار المقدسة ، أما من ذهب ليتكلم ويأكل ويشرب الخمر ويزنى ويرتكب الجرائم فهذا الكافر بعينه) . وكما حارب القس انقبطى الموالد حارب التدجيل الطبى والحر وبناء المياكل على أجساد الشهداء باعتبار ذلك كنه وثبة آتمة . (٢) كان أبو حنيفة يقول إذ يغشى خلقه إبراهيم بن أدهم (١٦٠) : جاء سيدنا إبراهيم بن أدهم .

أما محي الدين بن عربي في القرن السابع فسينقل كلامه كله ثم يطرده أطواراً أبعد ما تكون عن نهج آباء الصوفية الصالحين : كإبراهيم بن أدهم والجنيدي والشبلي والسقطي وأمثالهم .
والحسين الخلاج مولود بمدينة بفساء بفارس سنة ٢٤٤ من السابقين إلى القول بالحلول والاتحاد وفي ذلك شعره :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدننا
فلإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا
وافتحت الثامن بالخلاج ، فنسوا إليه القدرة على معرفة الغيب وإحياء الموتى ، واتصلت أسبابه بالقرامطة ، وصدرت ضده الفتوى من محمد بن داود الأصفهاني - الظاهري - فسجن وهرب ثم قبض عليه وحوكم وأعدم سنة ٣٠٩ .

لكن التيار العام للتصوف ظل يجرى في القرن الرابع بين ضفاف الفكر الإسلامي ، مثلما شهدنا ابن حنبل في القرن الثالث يشهد جنة الحارث المحاسبي فيتأثر كجلاسه ويكتفى بأن ينهى صاحبه عن مجالسهم دون أن يفقههم .
وفي أواخر القرن الرابع ظهرت مؤلفات أبي نصر السراج (٣٧٨) صاحب اللمع ، والكلا بآذى (٣٨٠) صاحب التعرف لمذهب أهل التصوف وأبي طالب المكي (٣٨٦) صاحب قوت القلوب .

وفي منتصف القرن الخامس ألف الهجویری كتابه كشف المحجوب فعد للمتصوفة اثني عشر فرقة هي المحاسبية نسبة للحارث بن أسد المحاسبي والقصارية نسبة لحمدون القصار والطيفورية نسبة لابن يزيد طيفور البسطامي والجنيدية نسبة للجنيد والنورية لأبي الحسين النوري والسهرلية نسبة لسهل التستري والحكيمية نسبة للحكيم الترمذی والحرازية نسبة لأبي سعيد الخراز والحقيفية نسبة لمحمد بن الحقيف والسيارية نسبة لأبي العباس السيارى والحلولية للقائلين بالحلول . ولم يذكر الفرقة الثانية عشرة فلعلها سائر المتصوفة .

والقشيري - وهو من كبار كتاب المتصوفة ، ومعاصر للهجویری - لا يحتفل إلا قليلاً بالحكيم

ويعلم أن شيخ الصوفية بوجه عام يقولون : إن الأولياء في كل وقت وحال أقل رتبة من الأنبياء ، وإن الأنبياء أفضل من الأولياء ، لأن نهاية الولاية بدء النبوة ، وكل نبي ولي ، وبعض الأنبياء ليسوا أولياء ، فالأنبياء خالون دائماً من الصفات الإنسانية والأولياء كذلك في بعض الأوقات . والحال عند الولي مقام عند النبي . وما هو عند الأولياء مقام - هو عند الأنبياء - حجاب ، هذه هي أصول أهل السنة والمتصوفة .

ويرى الحكيم الترمذی أن الولاية وهي القرية إلى الله تعالى تعم كل المؤمنين وهناك ولاية خاصة عبر عنها الرسول إذ قال : (إن فيكم محدثين وإن منهم عمر) ، وهم الذين اختصهم الله بالاسم الحقي وجعل لهم التصرف في الخلق بالحق . وقد يخص الله ولياً من أوليائه بشئ ليس عند النبي . وتقام الأولياء هو الإنسان الكامل . وهو الآخر في الأولياء .

الترمذى ، فلو احتفل به لما أعلن انقراض التصوف السابق عليه حيث يقول : (اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة قد انقرض أكثرهم ولم يبق في زماننا من هذه الطائفة إلا أثرهم . حصلت الفترة في هذه الطريقة لا بل اندرست بالحقيقة . مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء . وقل الشباب الذين كان لهم بها اقتداء) .

~ ~ ~

ولعل القشيري كتب ذلك قبل أن يذيع خبر أبي سعيد بن أبي الخير (٣٥٧ - ٤٤٠) بنيسابور ، بل لعله كان يعلن ميلاد عصر جديد لطُرز فارسية مستحدثة في ممارسة التصوف حين قال : (عندما رأينا الشيخ أبا سعيد لأول مرة لم تكن صوفية ، ولم نر صوفية . ولو لم نره لقرأنا التصوف في الكتب) .

وآثار أبي سعيد في تاريخ التصوف خطيرة .

فلقد تلمذ للفقاه العالم الشافعي الكبير ، ثم لبس خرقة التصوف على يد أبي عبد الرحمن السلمي (٤١٢) ، ثم اعتنق مبدأ وحدة الوجود واستكثر من البدع .

فأبو سعيد أول من استعمل اللسان الرموز الذي أكثر من استعماله الفرس ، ومنهم شعراء التصوف كالعطار وجلال الدين الرومي والساني .

وأبو سعيد مولع بالسماع والإنشاد ، مولع بالرقص ، يراه رياضة تساعد المريد على التخلص من شهوة الجسد ! وبالإنشاد والرقص اختصت فرقة المولوية المنسوبة إلى مولانا جلال الدين الرومي والتي خصها المستشرقون باسم « الدراويش الراقصين » .

وأبو سعيد أول من أقام عددا من التكايا أو الخانقاهات أو الزوايا ، لينقطع فيها رجال للذكر والعبادة والزهد على طريقته ، واستكثر منها في فارس وخراسان ، وكان يشرف عليها ويعلم المنقطعين إليها .

وأصبحت التكايا^(١) منذئذ ظاهرة اجتماعية في بلدان المسلمين .

(١) وليس نظام التكايا إلا نسخة طبق أصل مسيحي مملأ أفكار آسيا وأوروبا وأفريقية من قرون قبل الإسلام ، وبعده . منذ قدمه أقباط مصر للعالم المسيحي وشكليه النوحى والديراني في أواخر القرن الثالث الميلادي وأوائل القرن الرابع : فالقديس أنطونيوس رائد الرهبة التوحيدة والقديس يحميوس رائد المجتمع الديراني ، ومن بعدهما ظهرت الرهبة التوحيدة في جبل أتوس بسالونيك ، واشتهرت الرهبة الديرانية في دير ستوديموس بالقسطنطينية .

والرهبة التوحيدة تصوف انفرادي كمن يعيش حياته على عمود أو داخل كهف أو تجويف شجرة !

والرهبة الديرانية تصوف جماعة لقراءة الأناجيل والعبادة .

يقول الدكتور رأفت عبد الحميد الأستاذ بجامعة عين شمس في تقديمه لكتاب العالم البيزنطي : (قام الرهبان بدور كبير في الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية ، ولذلك فلا غرابة في أن يصحح الرهبان عند العالم البيزنطي الذين تعلقت بهم أفئدة الجمع ، -

وذاع عن أبي سعيد أنه يقول بسقوط التكليف عن بعض القوم ، بل إنه لا يلتزم بفرائض الإسلام ، فهذه المخرافات كثيرة بدأت على يد رجل واحد في منتصف القرن الخامس بخراسان في الوقت الذي أعلن فيه القشيري انقراض التصوف السابق ، وأنه لم ير قبله تصوفاً .
وجرت الرسائل بين أبي سعيد وبين ابن سينا (٣٧٠-٤٢٨) (١) .

وذاع أمره بين الفقهاء فندد به ابن حزم (٤٥٦) قال : (إن من الصوفية من يقول : إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع ، وزاد بعضهم واتصل بالله تعالى . وبلغنا أن بنيسابور اليوم رجلاً يدعى أبا سعيد بن أبي الخير من الصوفية ، مرة يلبس الصوف ، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال ، ومرة يصلي في اليوم ألف ركعة ، ومرة لا يصلي فريضة ولا نافلة . وهذا كفر محض) .

من غلاة الشيعة إلى التصوف الفلسفي

غلاة الشيعة :

كان لأمير المؤمنين على وشيعته شأن كبير في فجر الإسلام . فهو يظل حروب الإسلام غير مازع . وصهر النبي الذي نشأ في بيته ، وله الأنصار في حياة النبي وفي عهد الخلفاء الراشدين قبله . ولما بويج له بعد مقتل عثمان خاض المسلمون معه الحروب مستبشرين في الجمل وصفين والنهروان ، فلما استشهد التفت شيعة حول بنيه ثم تفرقت فرقا ترى كثرتها إمامة أبناء على من فاطمة الزهراء : أي بيت الحسن والحسين باعتبارهم (أهل البيت) ، والقللة رأيت إمامة محمد بن الحنفية بن علي من زوجته من بني حنيفة . ونقلت إمامته إلى ابنه أبي هاشم . واستغل بنو العباس تلك الفرقة ، واحتجوا

= وراحوا يطلبون إليهم قضاء حاجتهم وتخفيف الآمان وهذا أحل الرهبان مكانة فريدة في الشرق الروماني) وينقل لأستاذ عن كتاب المؤرخ جيبون (اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية) قوله :

(وقد سلم جيل متخنت ذليل في ورع وتقوى بحجة الكسل التي يبيعها الرهبان ، ولكن لو أن الخرافة لم تجذب أبناء ذلك العصر إلى العزلة بقصد التعبد لكانت هذه الرذائل نفسها قد أغرت الرومان التافهين على التخلي عن علم الدولة) .

(١) من ردود ابن سينا عليه مخطوطات محفوظة بدار الكتب المصرية ١ عن الغرض من القياس وتبعية العلم له ٢ - تعلق النفس بالبدن ٣ - سبب إجابة الدعاء ٤ الدخول في الكفر الحقيقي والخروج من الإسلام المجازي . ويطلق على الرسالة الأخيرة اسم الرسالة الإرشادية وهي رد من ابن سينا على كتاب لأبي سعيد في نفس الموضوع .

وكان أبو سعيد يعقد المجالس ويحفظ على المنابر ويجادل الفقهاء مما عرض حياته أحياناً للخطر ولم يرح ببلدته (مبهة) طوان نصف قرن إلا إلى طوس ، ثم قصة خراسان أو إلى خرقان .

بما قيل : إنه وصية من أبى هاشم لواحد منهم ، وأرجعوا حقهم في الخلافة إلى أنهم أهل النبى أو أهل «بيت النبى»

وعلا شأن الشيعة لعل في أهل خراسان كراهة منهم لبني أمية في الشام وإيثارهم العرب على الموالى ، وأملا في أن يتساوى الموالى والعرب . وزاد غضبهم تصالح الحسن بن على مع معاوية ثم استشهاده الحسين وأهله في كربلاء سنة ٦٣ . وكان الحسين قد تزوج شاه زنان إحدى بنات يزدجرد عاهل الفرس ، فولدت زين العابدين فصار للشيعة رحم في الفرس . وفي أوائل القرن الثانى نجحت الدعوة للرضا من آل محمد ، وجاء جدها ببنى العباس للحكم . وفلك بنو العباس بأبناء على فتكا لم يسمع بمثله من قبل ولا من بعد ! وسلم الإمام جعفر الصادق بإمامته العلمية المسلمة وانصرافه عن الإمامة السياسية كأبيه الباقر (١١٤) وجده زين العابدين (٩٤) .

وزين العابدين هو الوحيد من نسل الحسين الذى حيا بعد مذبحة كربلاء . وعلم الإمام جعفر المسلمين من كل مذهب فهو شيخ مالک وأبى حنيفة . وأثرهما ظاهر في جميع المذاهب . وهو شيخ جابر بن حيان أول كيميائى في التاريخ ، ومنه انتقل إلى العالم المعاصر منهج المسلمين في التجربة والاستخلاص .

لكن أثر جعفر الضخم كان في قيام شيعته بعد موته سنة ١٤٨ . بتشكيل مذهب متكامل في فقه العبادات والمعاملات ، وطريقة الحياة والسعى للرزق ، وفي نظام الحكم ، سمي الجعفرى - نسبة إليه - أو الإمامى أو «الاثنا عشرى» نسبة إلى قول أصحابه إن الأئمة اثنا عشرة أولهم على فالحسن فالحسين فزين العابدين فالباقر فجعفر فابنه موسى الكاظم فخمسة متسلسلون من حفدته . وهو مذهب في الفقه الإسلامى يتجارى هو ومذاهب أهل السنة ، تعمل به الآن دولة إيران وأقليات كبيرة في دول الإسلام أو غيرها^(١) .

وكذلك تعمل أقليات أخرى من الشيعة بمذهب عمه زيد بن على زين العابدين ، وهو مذهب قاعدته السياسية أن يجاهد الإمام للمطالبة بحقه . وأما في الفقه فهو أقرب مذاهب الشيعة إلى فقه أبى حنيفة إمام أهل رأى من أهل السنة ، مما يشير إلى تأثير زيد في علم أبى حنيفة وانتفاع المذاهب كافة به عن هذه الطريق .

ومن الشيعة من قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه وإن أباه أخفاه في حياته خوفاً عليه من السلطة وإن محمد بن إسماعيل صار إماماً .

(١) راجع كتابنا : الإمام جعفر الصادق طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وبهذا نشأت الفرقة الإسماعيلية . ثم صارت أفرقا : منها الغلاة ، ومنها المعتدلون لكن ديدنها كلها الخفاء ، اتقاء (تقية) للخطر ، وهي مجمعة على أن الإمام معصوم يمتاز بمن عدا . ومنهم من يؤولون القرآن والسنة لتجارى النصوص سياسة المذهب . ومن يزعمون قدرا إلهيا في الإمام ، وهي أفكار سبق بها مغالون آخرون ممن آلهوا أمير المؤمنين عليا في حياته فخذ الأخاديد وحرقتهم فيها بالنار .

ومنهم الكريية قالوا : إن محمد بن الحنفية لم يميت ! وقال آخرون - من القرن الأول - إنه سيرجع ؛ ومنهم حمزة بن عمار ادعى النبوة وكان يقول : (من عرف الإمامة فليصنع ما يشاء) ، ولهذا أحل المحارم لجميع العارفين .

ومنهم الذين أولوا الجنة والنار والصلاة والصوم وغيرها على أنها أساء رجال أمروا بمعاداتهم أو موالاتهم ، كاتباع أبي منصور العجل الذي زعم أنه خليفة الإمام الباقر ، وقد صلبه يوسف بن عمر الثقفي حوالى سنة ١٢٥ (١) .

ومنهم فرقة القرامطة التي استغلظ أمرها سنة ٢٧٨ . يقولون بوجود أئمة سبعة بعد لبي عليه الصلاة والسلام أولهم على ثم الخمسة الذى أسلفناهم والسابع محمد بن إسماعيل . وهو «القائم» و«المهدى المنتظر» وهو «غائب مستتر» وهو «خاتم النبيين» وأبعدوا في «التأويل» ليقبحوا بنيانا خصوصا لنحلهم .

وفي حياة زعيمهم حمدان بن الأشعث (المسمى قرمط) - وقد مات سنة ٢٨٦ - قامت فتنة القرامطة انتفاضا على الدولة والأمة ، فاستولوا على «البحرين» ، وتوجهوا إلى مكة ، فترعوا الحجر الأسود من الكعبة واحتجزوه على مدى اثنين وعشرين عاما ثم أعادوه إلى الكوفة ومعه ورقة جاء فيها (نزعناه بأمر وأعدناه بأمر) .

• • •

أرسل القرامطة داعية لليمن يلقب (ابن حوشب) وأرسل داعى اليمن داعيا بالمغرب أظهر المذهب الإسماعيلى ، فاستولوا على بلاد المغرب وأنشؤا مدينة المهديّة في أرض القيروان تونس ، وأقاموا الدولة العبيدية سنة ٢٩٨ . ثم سموها «الفاطمية» نسبة إلى فاطمة الزهراء باعتبارهم

(١) وزعم الناورية أن «جعفر الصادق» حتى لا يموت حتى يظهر باعتباره «المهدى» المنتظر . وزعم الخطاطية - في حياة جعفر - أنه نبى مرسل ، وأن النبوة نوري الإمامة ، وأولوا الكتاب والسنة وأحبوا المحارم ، وتبرأ منهم الإمام جعفر ، وفنك بهم عيسى بن موسى والى أبى جعفر المنصور على الكوفة وقتل أبى الخطاط . ثم انقسم الأحياء من أصحاب هذه النحلة فصاروا خلا تعمل في الخفاء منها اليزيدية والمفضلية والمعمرية والمعمرية قال بعضهم بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر وهو حجر الأساس في الفرقة الإسماعيلية .

حفدتها^(١)، وفتحت الدولة الفاطمية مصر في سنة ٣٥٨ وُدْعِيَ لها في بغداد سنة ٤٥٠ .
 وفي مصر ازدادوا حضارة والتزاماً بتراث العالم الإسلامي كافة فطراً عليهم الاعتدال المذهبي ،
 وقاوم المصريون تقديس المغالين منهم لأئمتهم . وفي سنة ٤٠٨ أخرجوا من غُلُوا في الحاكم بأمر الله
 إلى لبنان ، فشأت فرقة الدروز ، ثم شاركت في قتل الحاكم أخته (ست الملك) ، وكانت أمها
 جارية رومية نصرانية من سراري الخليفة العزيز بالله .

وتعاضد نفوذ النصارى واليهود في دولتهم : فخالاً (ست الملك) يعينان بطريقين للإسكندرية ،
 حيث الكنيسة القبطية ، وليست المقدس ، ويعقوب بن كلثوم أسلم وهو الوزير الذي نظم
 التدريس بالأزهر . ووكل الخليفة العزيز إدارة مصر إلى نصراني اسمه عيسى بن نسطورس . أما
 إدارة الشام فعهد فيها ليهودي اسمه منشا .

وأصهر الخليفة المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧) إلى قائده الأرمني الأصل بدر الجمالي فولدت له بنت
 (بدر المستعلي) ، فولاه بدر الخلافة وحبس أخاه نزارا صاحب الحق في الخلافة ، ثم قتل نزارا ،
 فدعا لإمامته الحسن بن الصباح في إيران .

والفاطميون أجمع يخلعون على أئمتهم بعض صفات الله سبحانه :

يقول ابن هانئ للمعز لدين الله وهو خليفة :

ما شئت لا ما شئت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

ويقول المعز لدين الله إذ مات ابن هانئ سنة ٣٦٣ : (هذا رجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء
 المشرق) .

ويقول آخر عن الخليفة :

بشر في العين إلا أنه عن طريق العقل نورٌ وهدى

جل أن تدركه أعيننا وتعالى أن نراه جسداً

ويشير ثالث إلى الخليفة فيقول :

هذا أمير المؤمنين بمجلس أبصرت فيه العقل والتريلا

وإذا تمثل راكباً في مجلس عاينت تحت ركابه جبريلا

ويمدح الأمير تميم بن معد أخاه الخليفة العزيز فيقول فيه :

مضى من العلة الأولى التي سبقت خلق الهيولى وبسط الأرض والمطر

(١) المؤرخون مختلفون في صحة نسب الفاطميين وفي سنة ٤٠٦ حرر صاحب الموصل - وكان تابعاً للخلافة العباسية -
 محضراً بطلان نسبهم وقع عليهم جماعة من أهل البيت يتصدرهم الشريفان الرضى والمرضى وهما من نسل الإمام النكاظم ، وعظيما
 من علماء الإمامية وقاضى القضاء ابن الأكتافى وقفاه عطاء من جميع المذاهب فيهم الإسفرايينى والقندورى وأبو عبد الله البيضاوى .

دعا الحسن بن الصباح لتزار واستقل بفرقة عن الفاطميين بمصر ، وأقام مجتمعاً إسماعيلياً في شمالي إيران ، وفرقة إرهابية سرية أفزعت الخلفاء والأمراء ، وروعت العلماء ، فمن قتلها في القرن الخامس الوزير السلجوقي الكبير «نظام الملك» وعلماء المدرسة النظامية .

وفي القرن السادس وثي بعضهم فراراً من السلاجقة إلى الشام ، وشادوا قلاعاً لهم في حماة وطرابلس . وحالفوا الصليبيين على المسلمين ، والمسلمين على الصليبيين . فقتلوا في سنة ٥١٩ أمير طرابلس الصليبي Raymond ، ودخلوا معسكر صلاح الدين وهو يعد للمعركة مع الصليبيين ، فطعنوه بخناجرهم .

وفي القرن السابع اكتسح هولاكو معاقلمهم في إيران فتشتوا . والمؤرخون الفرنجة يطلقون عليهم لفظ الحشاشين Assassins من تعاطى الحشيش المخدر أو من لفظ القتل الذي تعنيه الكلمة باللغة الفرنسية .

أما أوصاف أهل السنة لهم فهي : الملحدة والمزدكية أو التعليمية أو الباطنية .

وفيه يقول الغزالي (٥٠٥) في كتابه (فضائح الباطنية) :

(مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض ، ومفتتحه حصر لمدارك العلوم في الإمام المعصوم . وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق لما يعترها من الشبهات . . . هذا مبتدأ دعوتهم ؛ لم إنهم بالآخرة يظهرون ما يناقض الشرع . والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها واستنكار الشرائع إلا أنهم أجمع ينكرون ذلك إذا نسب إليهم) . ولو امتدت به العمر لرأى آثارهم في فكر المتصوفة الفلاسفة أبلج كأضواء النهار .

فمن بعد موت الحسن بن الصباح استحدث واحد ممن خلفوه في القرن السادس (الحسن بن محمد بن بزرگ) ما سماه «عيد القيام» ^(١) . وعيد القيامة من أعياد المسيحية - وغير أتباع الحسن الأصول الشرعية والعقائد الدينية . وقرروا تحليل المحارم ونفي الفرائض تأويلاً منهم للشرعة في خدمة الإمام (السلطان) :

فشهادة التوحيد - وهي أساس الدين - معناها - عندهم معرفة الله عن طريق لإمام ! أما الصلاة فعنها ألا يغفل المرء أبداً عن طاعة الله ورسوله وخليفته (أى الإمام) . وأما الصوم فهو أن ينذر أعضاء جسده في الظاهر والباطن لأمر الله الذي يمثله الإمام ! وأما الزكاة فهي أن يعطى المرء كل ما وهب الله له من مال لبيت مال الإمام ، أو يهبه - بأمر

(١) أقام الحسن في ١٧ رمضان سنة ٥٥٩ قبة مغايرة لقبة المسلمين ، ونصب إليها أعلاماً أربعة لكل منها لون أيضاً أو أصفر أو أحمر أو أخضر ، وأعلن أن رسولا جاءه من عند الإمام المستر يخبره أن الإمام رفع عنهم إصر الشرعة ورسومها ، فصار اليوم عندهم يوم عيد سموه «عيد القيام» وسكروا وتهكروا وأغنوه مثلاً للإمام .

الإمام - لأخ مؤمن !

وأما الجهاد فهو جهاد النفس والقضاء على هواها !

وأما الحج عندهم فإن تحفظ يدك عن الدنيا الفانية وتطلب الدار الباقية !
وأخيراً فالطهارة التي تسبق الصلاة هي التطهر من فعل أهل الظاهر : أى التجاوز عن قواعد
أهل السنة . والوضوء هو الرجوع إلى علم الإمام ، لأن الماء هو الحقيقة !
وعلى الجملة جعلوا الإمام هو الوسيلة بين الله والبشر وجعلوه لازمة من لوازم الوجود ، ووضعوا
أركان الدين كلها فى قبضته بالتأويل الرمزي .

وقد قتل الحسن سنة ٥٥٩ وخلفه ابنه محمد ، فتابع أباه حتى مات سنة ٦٠٧ .
ثم خلفه ابنه جلال الدين حسن ، فأعاد الناس إلى الجادة . وأبى جيرانه أهل قزوين أن
يعترفوا بإسلامه إلا أن يلعن صنيع أبيه وجده . فكتب ورقة جاء فيها : (ملأ الله قبورهم ناراً)
وأراد أن يصهر إلى أهل أذربيجان فأبوا إلا أن يشهد خليفة بغداد بإسلامه . فشهد ، واشتهر جلال
الدين فى قومه بأنه المسلم الجديد (نيو مسلمان) وخلفه ابنه علاء الدين سنة ٦١٨ ، وخلفه خلف من
أهله حتى دمر هولاكو دولتهم سنة ٦٥٤ .

التصوف الفلسفى :

فإذا انتقلنا من عالم الشيعة الغلاة إلى عالم التصوف الفلسفى فنحن لا نبعد ، فالولى عند هؤلاء
الصوفية يقابل الإمام عند الشيعة . والولى العصمة ، ولكل ظاهر باطن . وبالباطن يستأثر الولى ،
بل قد يزداد الصوفية فى الغلواء ، فيرفعون الولى على الرسول فى الدرجة زاعمين أنه يتصل بالله بغير
وسيلة الملائكة أو لحوول ذات الله فيه ، وقد يرفعون عنه التكليف وينسبون إليه علم الغيب !
ولا يقفون فى التأويل عند حدود .

يروى الشهرستانى عن أبى هاشم بن محمد بن الحنفية إمام الشيعة : (إن لكل ظاهر باطناً ولكل
شخص روحاً ولكل تنزيل (تأويلاً) ، ولكل مقال فى العالم حقيقة . والمتشتر فى الآفاق من
الحكم والأسرار مجتمع فى الشخص الإنسانى . وهو العلم الذى استأثر به على عليه السلام ، ثم ابنه
محمد بن الحنفية ، وهو أفضى بذلك السرى ابنه أبى هاشم وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو
الإمام حقاً) .

ويقول ابن عربى : (٦٣٨) : إن النبى ليس أعلى من الولى إلا فى نظر أهل الظاهر - أهل
الشرعة - أما من اقرنت عنده حالة أخرى تقتضيها مرتبة النبوة فيعلم أن الولاية هي (علوية
باقية - وهى المرتبة الباقية على الأنبياء والرسل التى ليست بمحل للشرع) فالرسول جاءنا بالشرع

أما علم الأولياء فيجيبهم من الله مباشرة بالتجلى والمشااهدة وما في النبي من ولاية يرجع فقط إلى قدر نصيبه من هذا العلم . والولاية يتعلق حكمها بالله تعالى ولها الدوام في الدنيا والآخرة ، والرسالة يتعلق حكمها بالخلق وينقطع بزوال التكليف .

والفناء هو إهلاك النفس ليعصده القاني إلى الملأ الأعلى ويلحق بالعقول المجردة . وهذا هو طريق إبراهيم عليه السلام ؛ فإنه لم يذبح شاة ، وإنما ذبح بشرية نفسه وحيوانيتها ؛ فالأولياء - بتعبير ابن عربي - هم (المستغرقون في عين الهدية الأحادية بفناء الأنية) وهم (متصلون بالمبادئ الروحانية كالعقل وما يليه) وهم (الذين آمنوا بالإيمان البقيني ، وكانوا يتقون حجب صفات النفس ومواقع الكشف) .

وعندما يفنى الولي في الله (لا يكون تصرفه صادرًا عن عقل واع ؛ وإنما هي النفس الكلية المتحدة تتصرف وتصدر عن المثل الأعلى) .

والعارف إذا بلغ مقام الولاية فليس تصرفه إلا جبرًا واضطرارًا . لأن الفناء في (هوية الأحدية) قد سلبه حرية الاختيار والتصرف .

وكانت كتب الحكميم الترمذي عن الولاية وخاتم الأولياء بين يدي ابن عربي وهو يكتب مآكته . وإن كان قد تمادى فجمع لنفسه (كادر) الأولياء كله .

وهو القائل : إنه اجتمع هو (ورجل من المغرب فيه خاتم الولاية بمدينة فاس ، وإنه لثقي هو والأبدال السبعة في مكان خلف حطيم الحنابلة بمكة ، وإنه شهد الأقطاب وعددهم ٢٥ قطباً في مشهد أقدس في حضرة برزخية بمدينة قرطبة) .

ثم تمادى فرأى نفس خاتم الأولياء :

قال : (أما الولاية المحمدية وختمها فمرجل من العرب) وقال في (الفتوحات) الملكية : (وهو في زماننا اليوم موجود ورأيت العلامة التي قد أخفاها الحق عن عيون عباده) ثم قال في عنقائه مغرب : (قاني أنا الختم . لا ولي بعدي . ولا حامل لعهدي . بفقدى تذهب الدول وتلتحق الأخريات بالأول)^(١) .

(١) ولد محمد بن علي بن أحمد بن عبد الله (ابن عربي) بمرسية سنة ٥٦٠ ورحل إلى المشرق سنة ٥٩٨ واستقر بالشام ويمكن له الأسباب اتصاله بالملك . فلث قونية في الأناضول وهو مسلم يلقبه بالوالد . وملك الروم كيكاوس (٦٠٩) يكتب إليه يستنصحه . ويوزر الملك فيقول الملك لحضائه : هذا رجل تذل له الأسود ، وأمر له الملك بمائة ألف درهم ، فتركها ورحل عائداً إلى دمشق حيث مات ودفن .

وعندما غر الأتراك الشام بنى له السلطان سليم قبة وقد همّ المصريون بقتله عندما زار مصر . ومن العلماء من يكفرونه كالتسخاوي وسعد التفتازاني ومثلاً على القاري وابن دقيق العيد وأبي حيان وابن حجر العسقلاني

(٨٥٢) وابن تيمية (٧٢٨) وابن خلدون (٨٠٩) .

وأصحاب الطرق الصوفية بغير استثناء يضعون عليا رضى الله عنه في قمة النظام الصوفى وهم في التعلق به أو التشيع سواء :

الحسن البصرى (١١٠) يسمى عليا (ربانى هذه الأمة) ومعروف الكرخى (٢٠٢) نصراني أسلم على يد الإمام علي الرضا إمام الشيعة . والحكيم الترمذى (٢٩٦) يكتب مائة وخمسا وخمسين مسألة تنبئ عن تشيعه : فالمسألة الخمسون هي (أهل بيتي أمان لأمتي) والواحدة والخمسون بعد المائة (آل محمد) ولما كتبت أوراق الحلاج (٣٠٩) وجدت عنده صورة فيها اسم الله وفي داخل الكتابة تعويج مكتوب فيه (علي عليه السلام) . والجليل (٥٦٠) صاحب الطريقة من نسل الإمام علي والرفاعي ^(١) (٥٧٠) علوى .

وابن عرى يقول عن تفسير قوله تعالى (عن النبأ العظيم) (إنه هو القيامة الكبرى) ، ولذلك قيل عن أمير المؤمنين علي هو النبأ العظيم) . .

وأحمد البدوى (٦٣٨) وأبو الحسن الشاذلى (٦٥٦) وإبراهيم الدسوقي (٦٧٦) كمثلهم في التعلق ، والشعراني (٩٧٣) كذلك . وهو يروى عن (البولى على وفا) قوله : (إن علي بن أبى طالب رفع كما رفع عيسى عليه السلام وسيئزل كما ينزل عيسى) !

* * *

ولئن رأى المستشرقون تشابها بين غلواء الاتجاهات الشيعية والصوفية وبين بعض العقائد أو النظريات أو طريقة الحياة في المجتمع الفارسي ، أو بين بعض ضروب التزهّد أو التعب الهندى - إن كثيرين يرون وشيجة جامعة بين استمداد العلم من الله مباشرة كما يزعم الشيعة للإمام والصوفية

وكتب إبراهيم البقاعى كتابين ضده أحدهما (تنبيه الغنى على كفر ابن عرى) والآخر (تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الإلحاد) .

أما السيوطى فكتب دفاعا عنه (تنبيه العلى في نفقة ابن عرى) .
وكتب عبد الوهاب الشعراني كتابا في الدفاع عنه أسماه (الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر) و (كتاب انبواقيت والجواهر في بيان عقيدة الأكابر) دار أكبر اهتمامه فيه حول ابن عرى .
أما الفخر الرازى والقاشانى وغيرهم كثيرون فلم يكفروه . وآخرون كالحصكفى من كبار الفقهاء يرون أنه كان يتعاطى الحبش تغدر فائر عليه .

وبعض يرى التجاوز عما يقوله لأنه يقوله وهو في حالات غيبوبة عن الواقع . وهو نفسه يقول عن تأليفه (إن تأليف هذا وغيره لا يعبرى بحرى التأليف ، ولا يخفى فيه بحرى المؤلفين ، فإن كل مؤلف إنما هو تحت اختياره . . . ونحن في تأليفنا هذا لمسا كذلك . إنما هي قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية ، مراقبة لما يفتح لها الباب . فقيرة خالية من كل علم لوستلت في ذلك المقام عن شيء ما سمعت لفقداء إحساسها ، منها برز لها من وراء ذلك الستر باهرت لامثاله وتفتت على حسب ما حُدّ لها في الأمر) .

(١) إليه تنسب الطريقة الرفاعية . وهم قوم يذكرّون الله لكن فهم منحرفين يطعنون أنفسهم بالمدى ، ويأكّنون النار والأفاعى ، نيرها للناس على أن النفس يد الله تصيح في غية تغارق البدن فلا عسا الأله .

للولى ، وبين مزج الإلهام الروحى بالنظر العقلى عند الإغريق . وهى الأفلاطونية المحدثة كما صاغها أفلاطون . وقد عرفها المسلمون من ترجمة قام بها عبد المسيح بن ناعمة الحمصى وسما أصحابها مدرسة الإسكندرانيين . كما سمي الشهرستاني أفلاطون (الشيخ اليوناني) ، ونقلها المتصوفة حيث قالوا : إن الحقيقة العليا لا تدرك بالفكر ولكن بالمشاهدة فى حالة الغيبة عن النفس وعن العالم الأرضى .

وما هى إلا كلمات (الشيخ اليوناني) :

(لتعزل العالم الخارجى ، وتوجه إلى داخل أنفسنا ونجهل كل شئ حتى كوننا نحن الذين نتأمل ، فن داخل النفس واتصالها بالملأ الأعلى تكتسب المعارف الحق) .

والمعرفة باليونانية Gnosis غنوص ، وهى كلمة تطلق منذ القدم على المعارف التى تكشف بالحدس الناشئ عن اتصال العارف بالمعروف عن غير طريق البرهنة والاستدلال أى الطريق العلمى . والعرب يستعملون لفظ الغنوص ليعبروا عن المعنى اليوناني .

يقول ابن عربى : (إن للعلم الإلهى ثلاث طرق هى الذوق والكشف وهى طريق العلم الكامل ، ثم البحث والنظر . ثم الإخبار الذى خص به الأنبياء) ثم يقول : (والإخبار أيضاً بقصر عن إدراك ما لا ينال إلا بالذوق) .

والسهروردى صاحب عوارف المعارف يعترف بأن بعض نظريات المتصوفة وهى الصفاء للوصول إلى الله مأخوذة من الفلسفة الإغريقية وبأن الوحدة والحلول لها جذور فى المجتمع الفارسي قبل ظهور الإسلام .

يقول : (خميرة الفيثاغورين وقعت إلى أخى أحميم^(١) . ومنه نزلت إلى سيار ستر وشيعته . أما خميرة الخسروانيين فهى نازلة إلى سيار بسطام . ومن بعده إلى فتى بيضاء . ومن بعده إلى سيار آمل) . وأخو أحميم هو ذو النون المصرى ، وسيار بسطام هو أبو يزيد . وفتى بيضاء هو الحلاج . وسيار آمل هو أبو الحسن الخرقانى (٤٢٩) .

(١) كانت فى دير أحميم من صعيد مصر (بحافظة سوهاج الآن) مدرسة عظيمة به فيها أفوفين وزوسيموس والأخير قد ذكره نزارى الطيب فى القرنين الرابع والخامس الهجريين مما يشير إلى انتفاع العلماء الإسلاميين بكتب هذه المدرسة التى تحبها الأديرة المصرية وتبارها يصب فى مدرسة الإسكندرية . وذو النون من أوائل الذين فلسفوا الصوفية . وله نظريتان فى المعرفة والحجة تضاهيان نظريات الأفلاطونيين ، فالمعرفة عنده معرفة عامة المؤمنين أو معرفة الخاصة من المتكلمين والحكماء ، ثم معرفة خواص الأوباء المقيمين الذين يعرفون الله بقلوبهم ، وهى أرقاها وأوفرها حظا من اليقين .

ولما مثل عن كيفية معرفته بربه قال : (عرفت ربي برى ولولا ربي ما عرفت ربي) والحجة عنده تبار متبادل بين العبد وربه يشعر فيه العبد باستغراق ذاته فى ذات الله . وهذا هو الحب الإلهى الذى يجب على من تحقق به ألا يتحدث عنه .

وأثر النظرين ظاهر فى السترى والنخشبى وأبى عبد الله الحلاء وأبى سعيد الخراز (٢٧٧) وآخرين .

والباطنية من الشيعة يوسعون مدى الغنوصية لتشمل الأئمة وكبار الدعاة .
 والمتصوفة أمثالهم يجعلون الأولياء يجعل الأئمة ويرتبونهم رتباً وأنساقاً ، من أدنى لأعلى :
 « فالصالحون » كثيرون ليخالطوا العوام . و« النجباء » قليل هم « الأبدال » أقل .
 وكل من الأبدال منفرد بقطر من الأقطار وقد يوجد اثنان في قطر .
 وأما « الأوتاد » فواحد في اليمن واثان في الشام وثالث في المشرق والرابع في المغرب .
 وأما « القطب » فواحد يديره الله دوران الفلك في السماء وهو « الغوث » : « يُرى عالماً كجاهل ،
 أبه كفيظ ، تاركاً آخذاً ، قريباً بعيداً ، سهلاً عسراً ، آمناً حذراً ! » .
 وما دام الغوث عالماً كجاهل ، أبه كفيظ - فلا بدع أن يكون لسائر الصوفية شطحات
 أو همهمات ، وأن يعبرها أتباعهم أسماهم . يستقصون في كل هينة معنى ، وفي كل هممة
 مضموناً ، فلفل ثمة العلم اللدني !

وفي القرن الرابع يحدد الكتاني (٣٢٢) العدد فيستكثر . ويستحدث درجات أخر . ويعين
 مقار العمل ويعين العمل : (فالغوث واحد ، والعمد أربعة ، والأخبار سبعة . والأبدال أربعون ،
 والنجباء سبعون ، والنقباء ثلثائة ، والنقباء بالمغرب ، والنجباء بمصر ، والأبدال بالشام ، والأخبار
 سيّاحون في الأرض . والعمد في زوايا الأرض . والغوث بمكة . فلا يتم الغوث الدعاء حتى تجاب
 الدعوة) .

» » »

ولئن نجح غلاة الشيعة هنا أو هناك زماناً ، أو أفلح المعتدلون منهم في نشر المذاهب العلمية
 وإقامة دول حملت رايات الإسلام في أرجاء العالم ، إن أثر الغنوصية في سلوك الخجاعات كان
 مشبطاً ، بما فيه من تخليط يؤثر السلبية على الإيجابية ، أي العمل ، والمجهول على المعلوم . والباطن
 على الظاهر ، والإدهان للحكام على النصيح لهم ، أو تعمل تبعات الإصلاح بالأمر بالمعروف
 والنهي عن المنكر .

وإذا كان من صلحاء الصوفية من عرفهم سهل بن عبد الله التستري (الصوفى من صفا من
 ضغائن الكدر وخلا من الفكر ، وانقطع عن البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر) فيجعلون
 الاعتزال والانقطاع عن العمل منتهى همهم ، إن العامة عظم الأمة لا تقدر على أن تنقطع عن
 العمل أو يستوى عندها الذهب والخصى . أما الخاصة فأعجل إلى الدنيا من العامة ، ومن نصحاء
 المتصوفة ومن واجب الجميع عمارة الدنيا .

هكذا تخلف من التراث الصوفى طقوس عزلة وانقطاع وتسلب ، ومقولات أغرقت الأتباع في
 بحار غريبة الأغوار من علم اليقين إلى عين اليقين إلى حق اليقين ، وسال مداد كثير من الكلام عن

علم القلوب في مقابل علم الفقه ، والباطن في مقابل الظاهر ، أو الحقيقة في مقابل الشريعة .
فجعلوا القلوب والباطن والحقائق خصيصتهم ، أما علم الفقه الذى يتداول أحكام الشريعة فهو علم
أهل الظاهر .

الأولياء :

وبعد : فمن هم «الأولياء» الذين ورد فيهم قول الله جل ثناؤه (ألا إن أولياء الله لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) ؟
لقد ورد لفظ الولي في تسعين موضعاً بالقرآن ومنها أولياء الله وأولياء الشيطان . وكذلك ورد
اللفظ في السنة . وما دام قد ورد النص في الكتاب والسنة فيتعين البحث عن معناه فيها . والحق
أن المنقول والمقول قد وضحا المعنى كل توضيح .
أما المنقول :

فالإمام الطبري (٣١٠) - كبير المفسرين بالمأثور - يفسر الأولياء بأنهم أنصار الله الذين
وصفهم بقوله : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

والفخر الرازي (٦٠٦) - كبير المتكلمين - يرى أن القرآن والسنة والآثار قد حددت التعريف
بهم . ففي القرآن أنهم هم (الذين آمنوا وكانوا يتقون) ، وفي السنة رواية عمر رضى الله عنه عن
رسول الله ﷺ : (إن من عباد الله أناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم
القيامة بمكانهم من الله . قالوا : يا رسول الله خبرنا من هم ؟ وما أعمالهم ؟ فإنا نحبهم لذلك .
قال : هم قوم تحابوا في الله بروح الله ، على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها . وقرأ هذه
الآية : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .
وأما المقول :

فالولي معناه القريب بالاستغراق في معرفة الله والإيمان بقدرته والثناء عليه وطاعته .
وليس القرب قرب مكان ؛ فهذا نجس .
وهو يحصل من الجانبيين . والله يقول : (الله ولي الذين آمنوا) .
والمتكلمون يقولون : إن «ولي الله من أتى بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ، بالعمل
الصحيح ، الموافق للشريعة .

فهذه كل طرائق العلم مجمعة على أن الأولياء كما قال تعالى هم : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) .
لكن الصوفية يعلقون كثيراً على حديث الولي :
في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : (قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى قال من عادى لي ولياً

فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه . وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألتني أعطيته ولن استعاذني لأعبدته .

والمفلسون منهم يرتبون على الحديث اتحاد ذات الله تبارك وتعالى مع ذات الولي . والحشويون يتصورون ذات الله كذوات الناس لها عين وأذن ويد ورجل : والحشويون يعيشون بين الجماهير ، والمفلسون يسقون الناس شراب الكفر في آية الأنبياء كما يقول ابن تيمية .

ولو استعمل الفريقان في التفسير منهج السلف لفهموا المقصود كما فهمه رسول الله وصحبه وتابعوه بإحسان . وهى الأجيال الثلاثة التى فضلها رسول الله واختارها الله تعالى ليذر بها وتنمو فيها بذرة التوحيد في الوجود .

ولو استعملوا منهج الآخرين لأيقنوا أن المقصود رحمة الله وتأبيده . ولو استعملوا فقه المسلمين في الإيمان لرأوا أن أداء الفريضة هو المؤهل للقرب ، وأن إضافة النوافل درجة فضل .

فالحديث بنصه وفحواه يهدم كل تفسير باطنى يغير المعنى الجلى للسان العربى الذى ورد به النص .

الكرامات :

يقول القشيري (٣٧٦ - ٤٦٥) : إنه ما دامت الولاية مرتبطة بفضل الله وتوفيقه فالأصل أن الولاية لله (يورد الأرواح مورد المكافحة بأنوار المشاهدة فيفنون عن الإحساس بالنفس ، ويورد الأسرار ساحات التوحيد ، وعند ذلك الولاية لله فلا نفس ولا حس ولا قلب ولا أنس بل استهلاك في الصمدية وفناء بالكلية) .

ويرى القشيري جواز أن تكون للنوى كرامات . وهو القائل « قبر معروف (الكرخي) ترياق محرب » .

وابن حزم إمام أهل الظاهر (٣٨٤ - ٤٥٦) باقعة عصره في الفقه والأدب ولغة العرب ، معاصر للقشيري ، ينكر أن تكون للأولياء كرامات بمعنى الخوارق وكمثله الإسفراييني (٤١٨ هـ - ١٠٢٧ م) معلم القشيري في الفقه^(١) يقول :

(المعجزات دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد لغير نبي . وللأولياء كرامات شبه

(١) الإسفراييني هو أحد الذين بنى هم التوزيع نظام الملك المدرسة النظامية التى تعلم فيها القشيري والغزالي وإمام الحرمين وغيرهم من عظماء العلماء .

إجابة الدعاء ، أما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا) .

وابن فورك أستاذ آخر للقشيري يقول : (المعجزات يؤمر الأنبياء بإظهارها ، أما الكرامات فالأنبياء مأمورون بسترها وإخفائها) .

وجملة الأمر عند أهل السنة أن (كل خارقة تحدث بتعين عرضها على الشريعة : فإن ساءت قبلت) .

فالكرامة الحقيقية للولى ليست فى الفناء فى ذات الله وحلول الله فى الولى ؛ فهذا يناقض أصل الإسلام وهو التوحيد الخالص ؛ وإنما الكرامة هى الكرامة المعنوية وحدها ، وقد لا يدركها من وقعت له وإنما (تظهر فى رقيه الروحى فى مدارج السلوك إلى الله) .

وإبراهيم بن أدهم (١٦١) يقول : (الأخبار الأبرار يغضب الله لغضبهم ويرضى لرضائهم) . وسهل التسترى (٢٨٣) يقول : (أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك) . ولما قال له قائل صوفى : ربما أتوضأ فيسيل الماء بين يديّ قضبان ذهب وفضة أجاب سهل : (أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطون خشخاشة لينشغلوا بها ؟) .

وقيل لأبى محمد عبد الله المرتضى (٣٢٨) : إن فلاناً يمشى فى الهواء فأجاب : (عندى : إن مكنته الله تعالى من مخالفة هواه أعظم من المشى فى الهواء) .

الإسلام إيجابى :

والولى فى نصوص القرآن والحديث شخصية إيجابية كما يتجلى من أحاديث عمر والنعمان بن بشير وغيرهما . ولا مراء فى أن من كبار الأولياء صحابة النبى . ومنهم الذين هاجروا والذين نصرروا والذين جاهدوا والذين بشرهم الله ورسوله بأن لهم الجنة . لم يتأوت واحد منهم تماوت لمتصوفين أو الحشويين ولم «يقن» واحد منهم عن نفسه فناء المتفلسفين أو يدع الغيب أو يزعمه له ابرجعون . أو يلبس خرقة المتصوفة أو يرتفع له صوت عند الذكر بالغناء أو «بالغبير» أو اصطناع الهيئات أو الانطواء فى تكيّة .

شتان ما حال الصحابة ومقامهم وأحوال غلاة الصوفية ! الأولون فى جهاد واجتهاد والآخرون مبدعون أو متقعدون أو مغربون . ومنهم من يصف أمرهم صوفىّ سئل عن مشايخه كيف كان يجدهم وقت السماع ؟ فأجاب : (مثل قطع الغم إذا وقع فى وسطه الذئاب !) .

وشتان بين ما جوع النبى وصحبه إذا لم يجدوا طعامهم ، والتجوع والتعريّة اللذين يقول عنهما أبو يزيد البسطامى (٢٦١) : إنه وجد المعرفة (ببطن جائع وبدن عريان) ، ويقول آخر : (أكل

درهم من اللحم يقسّى القلب أربعين صباحاً .

ورسول الله ﷺ يقول : (من أصابه جهد في رمضان فلم يفطر فأت دخل النار) ويقول : (إن الله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده في مأكله ومشربه) وكان عليه الصلاة والسلام يأكل اللحم ويحب الذراع من الشاة . وهو القائل : (نفسك راحتك فافرق بها حتى تبلغ الثرى) .
والقائل : (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) .
وكان الحسن البصري يشتري كل يوم لحماً .

ويضيف ابن الجوزي حكم الفقه إذ يعوق التجويع العبادة فيتساءل : (أى قربة في هذا الجوع المعطل للعبادة ؟ فالمرء إذا كان يتقوى على الصلاة بالطعام يلحق الطعام بالعبادة لأنه يعين عليها) .
يروى السهروردي (٦٣٨) أن الترويح عند الصوفية انحطاط من العزّة إلى الرخصة .
وأبوسليمان الداراني يقول : (ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته) ، والشعراني يروى قولاً لرباح بن عمرو القيسي (لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ، وأولاده كأنهم أيتام ، ويأوى إلى منازل الكلاب) .

شأن ما هذه الأقوال وقول رسول الله ﷺ : (أما والله إنى لأخشاكم لله وأنفاكم له لكنى أصوم وأصل ، وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني) .
والزواج يحتمل الأحكام الخمسة ^(١) . والرهينة من طقوس المسيحية ، وتعطيل للمسلمين ، وتقليل للصالحين ، ومنع للإحصان ، وتعذيب للفطرة ، وإضعاف عن العمل في الدنيا والآخرة .
وابن عطاء السكندري (٧٠٧) صاحب الحكم يرى الخلوة من المجاهدات التي تهين النفس (لأحوال الوجد والفناء والمعرفة) ، وذو النون يقول : (لم أر شيئاً أبعد على الإخلاص من العزلة) ، والقشيري يقول : (لا يتم قرب العبد من الحق إلا ببعده عن الخلق) .
وفي هؤلاء يقول ابن الجوزي (٥٩٧) : إن ذلك المعتزل (لا يتعدى نفعه عتبة بابه والعالم نفعه متعد . وكم قد رد إلى الصواب من متعبد) .

شأن ما يدعو هؤلاء له الأمة وما يدعوه رسول الله ﷺ .
قال أبو أمامة (خرجنا مع رسول الله ﷺ فرجل بغار فيه شيء من ماء ، فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار ويصيب ما حوله من البقل ويتخلى عن الدنيا ، وذكر ذلك للنبي ﷺ فقال

(١) الزواج فرض إذا قدر الرجل على المهر والنفقة وواجبات الزوجة عليه وثيق أنه إذا لم يتزوج زنى ، وهو واجب إذا قدر على كل ذلك وخاف أنه إذا لم يتزوج زنى ، وهو مندوب إذا قدر على كل ذلك وكان في حالة اعتدال لا يخاف أنه إذا لم يتزوج زنى ، وهو مكروه تعريفاً إذا خاف ولم يتيقن أنه يظلم زوجته إذا تزوج ، وهو محرم إذا يتيقن أنه إذا تزوج يظلم زوجته ولا يقوم بواجبات الزوجية .

له : (إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة ، والذي نفس محمد بيده لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها. ولقاهم أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة) .

والاعتزال وعدم العمل وعيش المرء من كسب غيره وانتظار رزق لا يسعى المرء له - كمر لنعمة العافية وللخلاقة الإنسان في أرض الله .

وشتان ما هؤلاء الذين يتراصفون في التكايا نياماً وقعوداً والذين يتراصفون في الصوف للزخوف .

» « «

وابن خلدون (٨٠٨) قاض يقدر على الفصل في النزاع. ومؤرخ يدرك روح التاريخ . فيعلن حاجة القرن التاسع الذي عاش فيه ، بل حاجة كل القرون . إلى العودة إلى الأمر الأول بمريد من الدراسة للرسالة والسيرة والسنة . ويكرر وصية أشياخه له لتكون وصية للأمة منه بالترياق الحقيقي الذي يفلح به كل مصلح . وهو فهم سنة الرسول والعمل بها . فيقول :

(ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولون : «شرح كتاب البخاري دين على الأمة» . يعنون أن أحداً من علماء الأمة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار) (١) .

ويقول عن علم الحقائق : (إن هذا العلم - كما رأيته - غير واف بمقاصدهم التي حوّموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها) . ثم يقول عن الصوفية الفلسفية : (أما علومها الطبيعية وما يستعمله أصحابها من البراهين فليكن الناظر فيها متحرزاً من معاطبها ، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكبر أحد عليها وهو خال من عنوم الله) .

أما آراء المحدثين والفقهاء فقد سبق بها ابن الصلاح (٥٧٧ - ٦٤٣ هـ) - (١١٨٩ - ١٢٤٥ م) حيث قال : (الفنفة أساس السفه والاخلال) .

ولم ترع الجماهير سمعها في حياة ابن الصلاح لمن أنهوها على الاخلال ، بل أتاحت للمتفسفين المتصوفين البهجة والفكن بذبوع مقولات ابن عربي (٦٣٨) وعبد الحق بن سبعين (٦٦٧) وعمر بن القارص (٦٣٢) وكان به سكر من الحب الإلهي . وشتان ما شعره وشعر رابعة العدوية : فهذا شعر القرن الثاني للهجرة وذلك شعر عصر ابن عربي .

(١) إذا عرفنا أن البخاري الثين وتماين شرحا ونسلم خمسة عشر (وهذان هما الصحيحان) بخلاف سائر شروح كتب السنن الكثيرة أمكننا أن نقرر أن المطلوب مزيد من الشروح في كل عصر . ليفهم الناس حدود الشريعة وسورها ويندركوا مبيع ما تسعدهم في دنياههم في كل عصر ومصر .

وعصر ابن عرى هو الذى نزل فيه الصليبيون دمياط سنة ٦١٥ وردد هم المصريون سنة ٦١٨ ، ففكروا ككرة أخرى فى سنة ٦٤٧ فأسير الملك لويس التاسع سنة ٦٤٨ (١٢٥٠ م) ثم أفرج عنه بقدية .

وعصر ابن عرى هو الذى دخل فيه هولاءكو بغداد فى صفر سنة ٦٥٦ (١٢٥٨) واحتل الشام بعدها بأشهر . ولم يرد جيوشه عن سائر بلاد الإسلام إلا هزيمته فى عين جالوت فى رمضان سنة ٦٥٨ - سبتمبر سنة ١٢٦٠ .

• • •

فى عصور التخلف هذه يقتصر الفقهاء على التقليد ، ويتقل تقليدهم إلى العامة فيصير إيماناً بهم . وطاعة كلها العبادة لهم . ويخضع الجهلاء لأضاليل المتفلسفين فى أى فن فيعبدون أشخاصهم وأفكارهم .

ويوم يعبد الناس غيرهم يكونون عباد أصنام ، وعبدة الأصنام أدنى من معبوداتهم . والناس أعجل فى الخضوع فى أيام المقاحط والمحن العامة والخاصة ، كمثل تعلق المرضى بوجه والغرقى بقشة . والغرقى بسراب .

وكلما طالت عصور التخلف والضعف استحكمت البدع ونفقت سوق الدجاجة بدعوى العلم اللدنى لديهم أولدى غيرهم ، يحشدون لها الأدوات من الأشخاص والأشياء لتصديقهم . وكثيراً ما استرعت عبادة بعض الناس أنظار العامة فنسبت إليهم ما لا يدعونه . ومن فلاسفة التصوف أنضاء عبادة نسب إليهم الناس أكثر مما تصوره : أو تجاوزوا عن غلواتهم من أجل تقواهم .

والناس من شهواتهم الدنية أو حاجاتهم الدنيوية أحوالاتهم المرضية يستبدلون الأمانى بالحقائق والأخيلة بالواقع . فيكفرون وفق شهواتهم .

وليس عجباً أن ينعكس سلوك الرعية على أفهام أولى الأمر ، علماء وحكاماً ؛ إذ تصبح البدع تقاليد للجماعة يعز الخروج عليها إلا من المقتدر . والحكام أحوج إلى الجماهير ومجاراتها إذا لم يكونوا منها ، ليسر عليهم أن يستمخروها ، أو يسخروا منها .

• • •

هكذا تسمى الجماعة صورة مهزوزة أو خيال ظل شائه الأصل ، تكتنفه الأوهام من كل جانب ، فتمشى مشى المسحور فى برزخ لا هو الخيال ولا هو الحقيقة . وترداد الفرجة بين عقيدة الأمة وسلوكها . فلا يكاد يصلها بالعقيدة إلا الاسم ، أو يبقى من العمل بالدين إلا التزام الطقوس . ومن السعى الواجب للحياة الكريمة إلا القناعة بأدنى الجهد . ثم لا تجد الجماعة فى علمائها غنية ، أن

لم يبق فيهم قدوة ، فتؤثر الحياة المتاحة لها من الحرام أو الحلال . وتكبد على وجهها في تراث الوثنية ، تدليها الغرائز ، وحاجات العيش من يوم ليوم ، وتتعاورها الرذائل ، وتسرى المعاصي سريان النار في أمتعة بالية .

والمعصية شجرة تنبت حولها أمثالها ، ومن عقوبة السيئة ما تنبت من سيئة مثلها . فتشيع الفاحشة . ولا تقتصر الفتنة على المذنبين ظلموا خاصة .

وهذه حال نبيه عليها رسول الله ﷺ :

قالت عائشة : دخل على رسول الله ﷺ وقد حفزه النفس ، فعرفت في وجهه أن مد حفزه شيء . فأتى تكلم حتى توضع وأخرج ، فلصقت بالحجارة . وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (أيها الناس ، إن الله عز وجل يقول لكم : مروا بالمعروف وانها عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم وتستنصروني فلا أنصركم وتسألوني فلا أعطيكم) .

ولم يشارف جبل الصحابة ختامه حتى سمعنا أنس بن مالك يقول للتابعين : «إنكم تعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر ، وإن كنا نعدّها في عهد رسول الله من المبرقات . . . وسمعنا الحسن البصري (١١٠) يقول عن الراهبين المتجبرين : (إنهم - وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين - إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم ، أرى الله إلا أن يذل من عصاه) . وفي عصر الحسن كان الناس يستمعون للنصحاء ويتذكرون الواجب . حتى حكام بني أمية روى عنهم الإمام أحمد في المسند «وجد في خزائن بني أمية حبة حنطة بقدر نواة الغرة وهي في صرة مكتوب عليها : (هذا كان ينبت في زمن العدل) .

ثم تلاحقت أجيال من البدع تلاحق أجيال الناس في نسيان الله . وهو القائل لهم سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله إن الله خير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون) . وأول عقوبة للعصاة فساد أنفسهم وزوال نعم الله عليهم : يقول علي بن أبي طالب : (ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة) .

وفي المسند من حديث ثوبان قوله عليه الصلاة والسلام : (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) . ومن ثم يجمع الناس بذنوبهم ويأخذ الفساد في الازدياد على حسب ما يبعد الزمن من القرون الأولى :

لقد لعن الرسول الراضمة والمستوشمة والواشرة والمستوشرة والواصنة والموصولة والنامصة والمنتمصة . ولعن الخمر وشاربها وساقياها والمختثين من الرجال والمسترجلات من النساء

واللابسات لبسة الرجال ، والسحرة - والولاة الظلمة وآكل الربا والراشئ والمرتشئ والرائش^(١) والمحلل والمحلل له وزوارات القبور والمتخذين عنها المساجد والسرچ . وأصبحت اللعنة عامة منذ أصبحت الجماعة تقبل ذلك كله ، ويعمل بعضها كثيراً منه ، دون إنكار عليه وربما مع الرضا عنه .

بل أصبح من الناس من يسجدون لغير الله سبحانه . ويطوفون بغير بيته المبارك . ويقبلون أحجاراً وقبوراً . ويستلمون أركانها ويحلفون بغير خالقهم ويمجدون صفاته . وغيروا البدع - مكفرات أو مضللات - وجه المجتمع فوجد فيه من يدعى ولاية الله ورفع التكليف عنه ومن تنسب إليه الكرامات وتطلب منه الشفاعات .

على هذا التيه الكريه من المعاصي ثار ابن تيمية . وقضى عليه الجهلاء - في ثياب علماء - بالسجن مرة بعد أخرى ، من أجل إيمانه الصحيح ، لأنهم كانوا في موضع الخصم والحكم .

(١) الرائش : السفير بين الراشئ والمرتشئ .